



المَحَكَّةُ وأصول الفقه

■ **الف) النظريات الأصولية الأولى في القرن الأول الهجري**

برغم وجود اختلاف واسع بين شتى فرق المحكمة في وجهات النظر الدينية، ومنها في أصول الفقه والأساليب الفقهية، ينبغي القول إنه حتى سنة ٤٦٣ هـ / ٦٨٤م، لم يكن ممكناً وضع حدود دقيقة بين تلك النزعات. و فيما يتعلق بالتعاليم الفقهية ـ الأصولية للمحكمة الأوائل، يجدر القول إنه لم يكن في أوساطهم فقهاء فحسب، بل إن المحكمة أقدموا ومنذ ذلك الحين على عرض بعض النظريات العامة في الفقه تظهر من جهة دورهم في أوائل مراحل تبلور النظريات الأصولية، و من جهة أخرى تكشف تميّز مدرسة المحكمة بوصفها مدرسة مستقلة في تلك الفترة. وكمثال على ذلك، يستشف من بعض الروايات الشهيرة أن المحكمة الأوائل وإثر سوء الظن الشديد في الأحاديث الرانجة خلال عصر الصحابة المتأخرين وبلااستناد إلى الظواهر والأحكام القرآنية العامة، أصدروا أحكاماً قوبلت بالنقد من قبل بعض الصحابة. و في الحقيقة، فإن كلام الشيخ المفيد في الجمل (ص ٨٥) عن تهرب الخوارج من الآثار والأخبار واعتمادهم على ظاهر القرآن وإنكار «ما خرج عنه القرآن»، كان المقصود به هو هذه النزعات المتطرفة في أوساط المحكمة.

و مع حدوث انشقاق في صفوف المحكمة خلال العقد الثامن من القرن الأول الهجري وظهور فرق ذات نزعات متعارضة، كان الأزارقة يمثلون الجناح الأكثر تطرفاً بين المحكمة في آرائهم الفقهية ـ الأصولية، ويلاحظ في النقول المتناثرة عنهم في مصادر معرفة الفرق، السعي إلى الكشف عن آرائهم المتطرفة، وبرغم أن لفينشتاين في دراسته احتمل أن تكون النزعة الظاهرية والهروب من السنة المنسوبين إلى المحكمة وبشكل خاص الأزارقة عرضاً مبالغاً فيه من قِبل معارضيهم للحظّ من قيمتهم. واستناداً إلى نقول الأشعري، فإن الأزارقة أنكروا جواز اجتهاد الرأي في الفقه، بينما كان الفريق المقابل لهم، النجدات ـ وكما هو اعتدالهم في بقية المجالات ـ يقبلون في أصولهم الفقهية شرعية استخدام الرأي.

■ **ب) الصفرية وأصول الفقه**

■ **مقالة/ الجزء السادس**

أصول الفقه

■ **المؤلف: احمد باكتجي**

مايزال الحديث عن النزعات الأصولية للصفرية في القرن ٢ هـ / ٨م، يبدو عسيراً نظراً لقلة المصادر، إلا أنه يمكن الحديث بشكل أسهل عن الفكر الأصولي لاتباع هذا المذهب في القرنين ٣ و٤هـ وبشكل خاص في الشرق الإسلامي. وقبل البدء بهذا الحديث، من الضروري التفكير بأن الصفرية هم من بين فرق المحكمة التي قل الاهتمام بحياتهم الثقافية برغم أهميتهم التاريخية، و في الروايات الباقية بهذا الشأن، يوجد غموض يجعل الاستفادة منها أمراً غير ممكن، إلا من خلال عملية تحليلية. والأساس الذي يستند إليه البحث هنا وُضع على أساس بنية التي اقترحها مؤلف هذه المقالة استناداً إلى تحليل معطيات الشيخ المفيد ومقارنتها بالمصادر الأخرى، رأى أن الخوارج ذوي النزعة الاعتزالية الذين قصدهم الشيخ المفيد والمؤلفين العراقيين المعاصرين له هم الصفريون في بلاد الجزيرة وغربي بحر الخزر وممثلوهم في العراق. ويستشف من مجموع كتابات الشيخ المفيد حول هؤلاء الصفرية، أنهم في مسألة نفي حجbie خبر الواحد كانوا يقفون إلى جانب متقدمي المعتزلة و لم يكونوا يُقبلون على رواية الأخبار. و إن مضمون الكلام حول الاجتهاد والقياس في «زيادات أوائل المقالات» الذي لم يرد فيه ذكر لمعارضة الصفرية لاستخدام هذه الأساليب، هو غير دقيق وبنفس القدر بشأن المعتزلة.

وبغية استكمال المعلومات تجدر الإشارة هنا إلى رسالتين لعالم من المحكمة في القرن ٣هـ (فيما يحتمل) من أهل تل عكير، هو أبو الفضل القرطوسي، و هما الرد على أبي حنيفة في الرأي والرد على الشافعي في القياس. إن القرطوسي الذي لم يفصح ابن النديم عن ارتباطه بمذهب الصفرية، هو ـ استناداً إلى التحليل ـ عالم من الصفرية العراقيين كان قد اتخذ في الرأي والقياس موقفاً منسجماً تماماً مع موقف متقدمي المعتزلة.

واستناداً إلى التحليل، فإنه من بين الأصوليين الصفرية المعروفين في النصف الأول من القرن ٣هـ / ١٠م، أيضاً يجدر ذكر أبي بكر البردعي العالم القادم من أران والساكن ببغداد الذي كانت له مواقف قريبة من مواقف المعتزلة والذي دَوّن الآراء الأصولية لمذهبه في أثر بعنوان الجامع في أصول الفقه.

■ **ج) أصول الفقه لدى الإباضية**

تعد نقطة الانطلاق في المذهب الفقهي الإباضي هي تعاليم جابر بن زيد (ت ١٠٣هـ / ٧٢١م) من تابعي البصرة والذي يعدّ من تلامذة ابن عباس وبسبب دوره المصري في تبلور فقه الإباضية، اكتسب اسم «أصل المذهب». وكما ورد في المصادر الرجالية، فقد ذُكر جابر بأنه فقيه ذو نزعة درائية لايتهرّب من الإفتاء، ويقف إلى جانب أصحاب الرأي من أمثال الحسن البصري من شتى الجوانب، و مع وجود رواية عنه بواسطة ابن عمر تنص على أنه لايجوز في الفتوى أن يتم تخطي القرآن والسنة، فإنه لم يكن في رؤيته الأصولية ليمتنع عن استخدام الرأي والقياس بأسلوب المكيين وتلامذة حلقة ابن عباس في حالة فقدان نص من الكتاب والسنة.

وخلال النصف الأخير من القرن ٢هـ / ٨م و في الوقت الذي كانت فيه النقاشات الأصولية قد احتدمت في الأوساط الدينية، كان الربيع بن حبيب بوصفه إمام الإباضية آنذاك وشخصية فاعلة في تشكل الإطار الرئيس للفقه الإباضي، يهتم بشكل أكبر بجمع الآثار، و لم يكن يبدي رغبة في البحوث الأصولية فيما يبدو.وبإزاء منهج الربيع فقد كان في نفس العصر أصحاب نظر يعارضون مواقفه أيضاً عُرفوا في تاريخ الإباضية بالأجنحة المنحرفة



بن أحمد، وأحد العصر، وفريد الدهر، وجهذ الأمة وأستاذ أهل الفطنة الذي لم ير نظيره ولا عرف في الدنيا عدلية، وهو الذي بسط النحو ومدّ اطنابه وسبب علله وفتق معانيه وأوضح الحجاج فيه، حتى بلغ أقصى حدوده وانتهى إلى ابعد غايته... نذكر من خدم علم النحو من قدماء الشيعة فقط منهم.

١- عطاء بن أبي الأسود: قال الشيخ الطوسي في باب أصحاب الحسين الذي بن نظيره ولا عرف في أبي الأسود الدولي. وقال الحافظ السيوطي في الطبقات: عطاء، استاذ الأصمعي وأبو عبيدة. (تأسيس الشيعة ٦٥ .)

٢- أبو جعفر محمّد بن الحسن بن أبي سارة الرواسي الكوفي: قال السيوطي: هو أوّل من وضع من الكوفيين كتاباً في النحو وسفّاه الفیصل وهو أستاذ الكسائي والفراء(تأسيس الشيعة ٦٧ .)

قال النجاشي: روى هو وأبوه عن أبي جعفر وأبي عبدالله ـ عليهما السلام ـ وله كتاب الوقف والابتداء، وكتاب الهمز، وكتاب اعراب القرآن ـ (النجاشي: الرجال ٢ / ٢٠٠ برقم ٨٢٤) .

٣- حمران بن أعين أخو زرارة بن أعين: كان نحويّاً إماماً فيه، عالماً بالحديث واللغة والقرآن.

٤- أبو عثمان المازني: بكر بن محمّد: قال النجاشي: كان سيد أهل العلم بالنحو والعربية واللغة ومقدمته بذلك مشهورة، وكان من علماء الإمامية.

٥- ابن السكيت: يعقوب بن إسحاق السكيت: كان مقدّماً عند أبي جعفر (الجواد) وأبي الحسن (الهادي) وكانا يختصانه.

■ **٢- قدماء الشيعة وعلم الصرف:**

إنّ أوّل من دَوّن الصرف أبو عثمان المازني وكان قبل ذلك مندرجاً في علم النحو، كما ذكره في

و لم تدم مدرستهم طويلاً.

وعلى رأس أولئك المعارضين، ينبغي أن نذكر أبا عبد الله بن يزيد الفزاري الذي اشتكى ـ في رواية ـ عن خسارة جناحه في مواجهة أصحاب الربيع؛ و إن احتمال كون الاسم الذي دَوّن خلال نسخ كتاب الدرجيني هو تحريف لاسم «عبدالله بن يزيد»، المتكلم الإباضي الشهير الكوفي الأصل الذي أقام ببغداد لفترة، احتمال قابل للكون إليه. و مع الأخذ بنظر الاعتبار أن بيتتي الكوفة وبغداد كانتا في النصف الثاني من القرن ٢هـ ، مركزاً للتعاليم الأصولية لأصحاب الرأي، فإن افتراض وجود مدرسة إباضية في العراق بإزاء مدرسة الربيع المهيمنة بزعامة عبد الله بن يزيد كانت الرؤية الكلامية منها غالبية على آرائها، أمر جدير بالنظر. ويحتمل أن يكون طرح بعض المسائل من مقدمات الأصول مثل مسألة «مقدمة الواجب» و «اجتماع الأمر والنهي» قد أنجزت في علم الأصول الإباضي في القرن ٢هـ بواسطة هذه المدرسة. و في المصادر الإباضية التابعة للربيع منذ القرن ٢هـ / ٩م و ما بعده، فقد وقف عبد الله بن يزيد على رأس معارضي الربيع.

و في القرن ٣هـ ، و برغم هيمنة أتباع الربيع، كان الفقه الإباضي مايزال في حالة التبلور و في الحقيقة، فإنه قد اتخذ شكلاً مدوناً وثابتاً نسبياً منذ القرن ٤هـ ولدى المقارنة، نجد أن الفقه الإباضي المدون في القرن ٤هـ كان قريباً جداً من المذاهب الفقهية لأهل السنة وبشكل خاص من مذهب مالك، وباستثناء نموذج محدود من النزعة الظاهرية بوصفها مبرأناً من الفقه المتقدم للمحكمة، كان بعيداً عن الخروج على القاعدة مقارنة بمذاهب أهل السنة. وكان الإباضية من أهل التدوين في هذه الفترة، شأنهم شأن مذاهب أصحاب الحديث المتقدمين ومنهم مالك، قد مزجوا في منهجهم الفقهي بين الاعتماد على المصادر الروائية وبشكل خاص السنة النبوية وبين الاستخدام المحدود للرأي والقياس. و في هذا الصدد جوبهوا أحياناً بمعارضة علماء لم يكونوا هم أنفسهم من أصحاب تدوين الجوامع الفقهية وكان بإمكان خصيصتهم هذه، أن تذكر بمنهج أصحاب الحديث المتأخرين في التعامل مع الفقه المدون.

وبرغم أن ابن جعفر (ت ٢٨١هـ / ٨٩٤ م) الذي يعدّ من أقدم مؤلفي الجوامع الإباضية اعتمد في موقفه النظري في جامعه على دليلي الكتاب والسنة فحسب، إلا أنه استناداً إلى إشارات في نفس الأثر و في مصادر إباضية أخرى، كان يتقبل في رؤيته العامة في التعامل مع أصول الفقه منظومة الأدلة الأربعة (الكتاب والسنة والإجماع والرأي). وعلى الطرف الآخر، فإن العالم المعاصر له، أبا المؤثر البهلاوي، ضمن تأكيده على أن الاستناد الفقهي في السنة الإباضية ينحصر في الكتاب والسنة و «آثار أئمة المسلمين (الإباضية)». غَدَ ابن جعفر متطرفاً في العمل بالرأي وذمّه. ويلاحظ استمرار نهج ابن جعفر في كتاب الجامع لابن بركة البهولي في أواخر نفس القرن والذي خصص قسماً وافياً في مقدمة الكتاب لمقدمين أصول الفقه بأسلوب قريب من الآثار الأصولية المتداولة. و من سمات ابن بركة في نظرتة الأصولية تجدر الإشارة إلى قوله في حجbie أقوال الصحابة ووضعه القياس في منزلة تلي التوقيف.

ومنذ القرن ٦هـ / ١٢م، و مع ازدهار الدراسات الكلامية ـ الأصولية في الأوساط الإباضية في المغرب، فقد تم تأليف آثار مستقلة في علم أصول الإباضية والتي كان أوّل نموذج معروف لها الأدلة والبيان في أصول الفقه لتبقورين بن عيسى، العالم النفوسي الذي عاش في النصف الثاني من القرن ٥هـ و في نفس المضمار، ألف عالم المغرب الشهير في النصف الثاني من القرن ٦هـ ، أبو يعقوب الورجلاني كتابه الخالد في أصول الفقه العدل والإنصاف الذي كانت أهم الآثار الأصولية في القرون التالية شروحاً عليه وتلخيصات له وتلخيص لأحمد بن سعيد الشماخي (ت ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م) والذي كتب بنفسه شرحاً على ذلك المختصر.

و في عُمان و من الآثار الأصولية المستقلة في القرون الأسبق، يجدر ذكر الأنوار في الأصول لعثمان بن عبد الله الأصم، و من الآثار الأحدث فصول الأصول لخلفان بن جميل السبابي.

■ **تمت**

المصدر: دائرة المعارف الإسلامية الكبرى

■ **٥- قدماء الشيعة وعلم التفسير:**

إنّ مدرسة الشيعة منذ أن ارتحل النبي الأكرم ﷺ إلى يومنا هذا، أنتجت تفاسيراً على أصعدة مختلفة، وخدمت الذكر الحكيم بصور شتى، فأتى بوجه موجز، لما ألف في القرون الإسلامية الأولى . ولقد ألف أصحابنا في بداية التدوين كتباً في ذلك المضمار، نذكر قليلاً من كثير .

١- غريب القرآن: لأبان بن تغلب بن رباح البكري (ت ١٢١) .

٢- غريب القرآن: لمحمّد بن السائب الكلبى من أصحاب الامام الصادق ـ عليه السلام.

٣- غريب القرآن: لأبي روق، عطية بن الحارث الهمداني الكوفي التابعي، قال ابن عقدة: كان مفنّ يقول بولاية أهل البيت.

■ **٦- قدماء الشيعة وعلم الحديث:**

ومما يدلّ على اهتمام الشيعة بعلم الحديث وتدوينه ما تراه في سيرة أمير المؤمنين ﷺ في هذا الصدد، إذ قام الامام أمير المؤمنين علي ﷺ بتأليف عدة كتب في زمان النبي، فقد أملى رسول الله ﷺ كثيراً من الأحكام عليه وكتبها الامام واشتهر بكتاب علي وقد روى عنه البخاري في صحيحه في باب «كتابة الحديث»، وباب «أثم من تبرّأ من مواليه». وقد تبعه ثلّة من الصحابة الذين كانوا شيعة الامام وإليك أسماء من اهتمّ بتدوين الآثار وما له صلة بالدين وإن لم يكن حديث الرسول ﷺ.

١- قام أبو رافع صحابي الرسول ؟صل؟ بتدوين كتاب السنن والأحكام والقضايا.

٢- قام الصحابي الكبير سلمان الفارسي المتوفى سنة ٣٤ بتأليف كتاب حديث الجاثليق الرومي الذي بعته ملك الروم بعد وفاة الرسول ﷺ قال الشيخ

الطوسي: روى سلمان حديث الجاثليق الذي بعته ملك الروم بعد النبي ﷺ (الطوسي: الفهرست ٨) .

٣- وآلف الصحابي الورع أبو ذر الغفاري المتوفى سنة ٣٢ كتاب الخطبة يشرح فيها الأمور بعد رسول الله ﷺ ((الطوسي: الفهرست ٥٤) .

هذا ما يرجع إلى الصحابة من الشيعة وأما الشيعة من غير الصحابة أعني التابعين وتابعي التابعين منهم، فقد قام لفيف منهم بتدوين السنة إلى عصر الغيبة الكبرى، قد تكفل بذكرهم وتأليفهم معاجم الرجال قديما وحديثاً وإليك عرضاً موجزاً من محدثي الشيعة ومؤلفيهم في القرن الأوّل وبداية الثاني. وهناك عدة من الشيعة لهم الدور البارز في هذا الصدد منهم...

المصدر: الأئمة الإثنا عشر